عمارة

بتشييده في القرن التاسع الميلادي، حصلت مصر على اول جامع فيها على الطراز السامرائي الآجري، لكن يبدوا ان المؤرخين المصريين لم يعرفوا ان جامع ابن طولون يتبع في طرازه جامع الخليفة المتوكل في سامراء. وقد جهدوا في شرح أشكاله الغريبة، وابتدعوا من اجل ذلك قصصاً جميلة

جامع ابن طولون من العصر العباسي إلى المماليك

حكايات البناء والترميم

ناصر الرباط

جامع ابن طولون في القاهرة، المبني بين سنتي 876 و879، واحد من أكثر جوامع العالم سكوناً وهيبةً ورصانة. وهو المبنى الوحيد المتبقي من مدينة القطائع التي بناها الأمير احمد بن طولون شمال الفسطاط عاصمة مصر الإسلامية إبان حكمه البلاد لصالح العباسيين، الذين دسروا ما بناه بعد أن تطاول على الخلافة وأسس سلالة حكمت لجيلين بعد موته.

والجامع يقبع فوق جبل يشكر في قلب المدينة التاريخية في مكان مشهور بإجابة الدعاء حتى قيل إن موسى ناجى ربه عليه بكلمات. وهو بباحته الواسعة التي تتوسطها فوارة متأخرة البناء وبوائكه التي تحيط بها بعضادات من الطوب كل منها مزنرة بأربعة أعمدة محفورة في زواياها، وقاعة صلاته التي تستمر على نفس نمط البوائك لخمسة صفوف، وزخارفه الجصية المجردة، ومئذنته التي تستقي شكلها من ملوية سامراء عاصمة الخلافة، وكتاباته الكوفية على الخشب والجص التي قيل إنها حوت يوماً نص القرآن كله، النموذج الوحيد الذي ما زال قائماً في العالم لمساجد سامراء العباسية.

تبدأ قصة الجامع بكنز مخبوء. ففي ليلة مقمرة، حسب عبارة البلوي كاتب سيرة ابن طولون، خرج الأمير مع حاشيته إلى الصحراء فساخت في الأرض يد فرس بعض غلمانه وسقط الغلام، فوقف عليه احمد بن طولون وأخرجت يد الفرس، فنظر فإذا بفتق ففتح، فوجد غرفة قديمة محشوة بالأشياء النفسية (لا بد أنها مقبرة فرعونية)، وأصاب فيها من المال ما كان مقداره ألف ألف دينار. فقرر ابن طولون صرفها في وجوه البر، وأولها بناء جامع. وهكذا بدأت أسطورة الجامع الذي أراد له ابن طولون أن يحفظ ذكره كحاكم مؤمن وعادل وسخي. وأراده أيضاً أن يكون مبنىً فريداً ولكنّه ليس بالغريب، مهيباً ولكنه ليس بالمتباهي، وضخماً ولكنه ليس بالطاغي.

رغب الأمير لجامعه أن يجايل العمارة العباسية مثل جوامع سامراء التي شب فيها ابن طولون. فقد قدّر لبناء جامعه ثلاثمائة عمود، وقيل له: «ما تجدها أو تنفذ إلى الكنائس في الأرياف والضياع الخراب فتحمل ذلك. فأنكره ولم يختره وتعذب قلبه بالفكر في أمره»، لأنه لم يجد بين المعماريين الذين تسابقوا للحصول على مشروعه من يمكنه أن يحل له هذه المعضلة. وبلغ الخبر بناءً مسيحياً حفظت لنا المصادر اسمه، سعيد بن كاتب الفرغاني، يبدو أنه جاء مع ابن طولون من سامراء وهو مسجون في سجن الأمير، فكتب إليه: «أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد إلاّ عمودي القبلة»، فأحضره وقد طال شعره، فصوّر المعمار الجامع على الجلود فأعجب الأمير واستحسنه وأطلق سراحه وأطلق له النفقة حتى يقوم بالبناء. وكما وعد فقد تمكن سعيد من بناء الجامع باستخدام العضادات بأعمدتها الآجرية الأربعة، ولم يستخدم سوى عمودي رخام سماقي على طرفي المحراب. وارتاح ابن طولون، وأمر لسعيد بجائزة عشرة آلاف دينار. وحصلت مصر على أول جامع فيها على الطراز السامرائي الآجري الذي لا يستخدم الأعمدة الرخامية كما كانت العادة. لكن المؤرخين المصريين لم يعرفوا على ما يبدو أن جامع ابن طولون يتبع في طرازه جامع الخليفة المتوكل في سامراء. وقد جهدوا في شرح أشكال جامعهم الجديد الغريبة، وابتدعوا من أجل ذلك قصصاً جميلة، لعل أفكهها هي قصة المئذنة. فكما نعلم فإن مئذنة ابن طولون تتبع في شكلها شكل سابقتها الأعظم المئذنة الملوية في سامراء، ولكن المؤرخين أتوا لنا بالقصة التالية: كان ابن طولون جالساً في مجلسه يفكر وهو يعبث بلوح من الورق بيده وهو ساهٍ عنه، فخرج بعضه وبقي بعضه في يده، واستيقظ لنفسه وعلم أن مجالسيه شاهدوه وأخذوا عليه لكونه لم تكن تلك عادته، فطلب معمار الجامع وقال له: تبني المنارة هكذا، فبنيت على تلك الصورة، وتخلص ابن طولون من موقف محرج. نحن نعرف أن منارة ابن طولون بُنيت على مثال ملوية سامراء، التي سبقتها بخمس وعشرين سنة، ولكن القصة التي توردها المصادر المصرية تبين لنا كيف يتحايل المؤرخون لدرء جهلهم. كما هي الحال في أغلب قصص المباني العظيمة، تحفل سيرة جامع ابن طولون بالمنامات المعبرة المنسوبة لابن طولون. منها اثنان يأتيان عبر روايتين مختلفتين، ولو أنهما في نهاية الأمر يعبران عن المشاعر نفسها. في الرواية الأولى رأى أحمد بن طولون في منامه لما تم بناء الجامع كان الله تعالى قد تجلى للقصور التي حوله ولم يتجل للجامع فسأل المعبرين فقالوا: يخرب ما حوله ويبقى قائماً وحده. قال: من أين لكم هذا؟ قالوا: من قوله تعالى: «فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا». وكان كما قالوا، خربت القطائع وبقي جامع ابن طولون قائماً. أما الرواية الثانية فقد رأى ابن طولون في منامه كأن ناراً نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله من العمران، فلما أصبح قص رؤياه فقيل له: أبشر بقبول الجامع المبارك لأن النار كانت في الزمن الماضي إذا قبل الله قربانا نزلت نار من السماء أخذته ودليله قصة قابيل وهابيل. وقد احترق جزء من جامع ابن طولون فعلاً، فالفوارة في وسط باحته احترقت بكاملها بعد مئة سنة من بنائه، وهي كانت على قول المقريزي، «قبة مشبكة من جميع جوانبها، مفروشة كلها بالرخام، وتحت القبة قصعة رخام فسحتها أربعة أذرع، في وسطها فوارة تفور بالماء، وفي وسطها قبة مورقة يؤذن فيها، وفي السطح علامات الزوال، والسطح بدرابزين ساج، فاحترق جميع هذا في في ساعة واحدة». ولكن القطائع كلها خربت بعد زوال دولة بني طولون وتشعث الجامع وخرب أكثره، وصار مكاناً ينزل فيه المغاربة في موسم الحج.

ولكن الله قدر للجامع من يرممه في الفترة المملوكية في قصة أكثر إثارة من قصة البناء الأول. ففي عام 1292 اختبأ الأمير حسام الدين لاجين المنصوري في الجامع بعد مشاركته في اغتيال السلطان الأشرف خليل بن قلاوون. وأعطى لاجين عهداً أن سلمه الله من هذه المحنة أن يجدد عمارة الجامع ويجعل له ما يقوم به.

(مؤرخ معماري مقيم في الولايات المتحدة)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

رواق داخل جامع ابن طولون (Getty)

النموذج الوحيد الذي ما زال قائما لمساجد سامراء العباسية

يختزل كل ما هو جميل ومهيب في العمارة الإسلامية المبكرة

لحظات مضيئة

لعل اكثر هذه اللحظات المضيئة اهمية واكثرها تأثيراً حضارياً وجدلاً ايديولوجيا اليوم هو العصر العباسي الذهبي الذي جعل من بغداد عاصمة العالم الاولى حقاً، يفد اليها العلماء والادباء والفنانون، وهو زمن امتد من تأسيس الدولة عام 750م وانتهى عند مقتل الخليفة المتوكل في سامراء عام 861، وان استمر صداه الثقافي والحضاري لعقود طويلة بعدها لم ينهه سوى الغزو المغولي المدمر عام 1258.
(الصورة لمئذنة جامع ابن طولون).

إطلالة

هل بوسعها الانتظار فعلاً؟

رواية الربيع العربي

لن نفهم هذه المعضلة الزائفة، إلّا إذا ادركنا ان الانظمة تعمل على إحالة الثورات إلى التاريخ، هناك بدأت وهناك انتهت، وعدم اعتبار نتائجها واقعاً مستمرّاً نعاني منه

فوّاز حداد

راجت الكثير من الحجج حول عدم ضرورة الكتابة عن حدث الربيع العربي روائياً، أغلبها كان للتنصّل من تداعياته، قبل معرفة ما سيؤول إليه. أمّا الذريعة فكانت بريئة، أنه من المبكر مقاربته، على الكاتب الانتظار حتى تتكشف أبعاده، وتتضح الأفكار حوله في راس الكاتب، والأفضل التمهّل ريثما يتبلور شيء ما في ذهنه حياله لن يتوضّح إلّا بعد مرور سنوات على اختتام أعماله، وليس قبل أن يوضع حدّ له على الأرض، والتخلّص منه، بإرساله إلى الماضي، ويستقرّ في دفاتر التاريخ. أي هناك متّسع من الوقت لإدراجه في الرواية. إذاً بوسعه الانتظار. بموجب هذا الاعتقاد، حسبما راج، وكما كان مأمولاً، انتظر بعض الكُتّاب هذا الربيع الذي لن يطول سوى بضعة أشهر، وتتساقط الأنظمة، وتحل عهود جديدة، بعدها يمكن الكتابة عنه باطمئنان، لكن مرّ ما يقارب عشر سنوات، مضت في ترقّب قدوم الذي ياتي، ولم يأت، وتحوّل الربيع إلى فصول مدلهمة وقاسية، ولم يبق منه سوى حطام.

الحجة الرئيسة في طيّ هذا الحدث في الماضي، أنه يسمح في المستقبل بإمعان النظر إليه من مسافة، تجعله أكثر موضوعية، ريثما يُفرج عن خبايا التي لن نلمّ بها عن قرب، أو ونحن في داخله. البرهان المثالي على حجتهم، رواية «الحرب والسلام» التي كتبها تولستوي بعد مضي مائة عام على غزو نابليون لروسيا. احتاج تولستوي إلى الكثير من المراجع والوثائق ليكتبها. وبالمقارنة مع الآن، مجريات الربيع بصعوده وسقوطه بمتناول النظر والذاكرة القريبة، وليس المطلوب من الكاتب الإلمام بأسراره، ما دام أنه يكتب عن الناس، وينظّر للتاريخ من موقعة الروائي، كأحداث جارية، لا كمؤرّخ. طبعاً، هناك روايات تدعم رأياً يدور حول إمكانية الكتابة عن الحدث خلال وقوعه، سواء طال أو لم يطل، كما في الحربين العالميتين الأولى والثانية، كثير من الروايات والقصص كتبت في الخنادق. فالروائي لا يكتب رواية تاريخية، بل رواية واقعية، تقع في خلال حرب، عاش أو يعيش فصولها. بالتالي، ما يقع على عاتق التاريخ، لا يقع مثله على عاتق الرواية. حال الرواية اليوم مختلف عن حالها في القرن المنصرم، يلاحظ من ارتفاع رقم إصداراتها بمعدّلات قياسية بالنسبة إلينا، فدولة مثل فرنسا تقدّم في موسمها الأدبي ما يزيد عن خمسمائة رواية. وبالنظر إلى العالم، يصل الرقم إلى عدّة آلاف. ما يدلّ أنّ الرواية تخترق العالم؛ إن كان حول الحاضر، أو ما مضى، أو ما سيأتي، كذلك المتخيّل. إنها ليست صوت عصر واحد، بل صوت الزمن، وصوت حياة لا تغيب عنها حركة البشر والتاريخ والتقدم والتراجع والصعود والانهيار والموت... رواية تعكس العالم بمختلف تجلّياته.

لذلك لا شيء يمنع دخول الربيع العربي بمختلف وجوهه وتقلّباته ومتغيّراته إلى الرواية، مع أن أنظمة المنطقة لا ترحّب به، بدعوى توثيقه أولاً، ومن ثم احتكاره من قبل المؤرخين. لن نفهم هذه المعضلة الزائفة، إلّا إذا أدركنا أن الأنظمة تعمل على إحالة الثورات إلى التاريخ، هناك بدأت وهناك انتهت، وعدم اعتبار نتائجها واقعاً مستمرّاً نعاني منه، كلّف بلادنا مئات الآف الضحايا لقاء جعله حقيقة ودليلاً، فهل يصح للرواية إغفاله، والتخلّي عنه كلية للمؤرّخين القادمين بعد عقود، وأن نثق بالا يغمط حقه، وتنتزع حقيقته؟ للرواية نصيب وللتاريخ نصيب. ولا عبث في القول: لولا الربيع فكأن هذا الزمن لم يكن. من هنا تأتي مسؤولية الرواية، قبل أن تجيّره الأنظمة لحساباتها.

يكتب المؤرّخ من زمن آخر، زمن مختلف، يطلّ على مشهد لا يعنيه إلّا كعمل يؤدّي حسب منهجية صارمة، بينما الروائي يقف في زمانه أمام مشهد هو طرف فيه، هذا كي نفهم ما معنى سردية، وأن كلاً منّا يقدّم سرديته حسب الموقع الذي اختاره، وبالأصح حسب موقفه... وبالضد من سرديات قد تكتب بدلالة سطوة الـة الدولة من وسائل إعلام وخبراء ومحللين ومثقفين انتهازيين، لذلك رواية الواقع رواية الضرورة، إنها بالدرجة الأولى، سرديتنا، تعاكس سردية الأنظمة وتدحضها.

الروائي محايد، وإذا كان منحازاً ففي موقفه الإنساني، لديه القدرة على إدراك بواعث الذين وقفوا مع الأنظمة، والذين وقفوا مع الناس، والذين كانوا بين بين، والذين تواروا وراء مواقف يسارية زائفة، أطلقوا على الثورة مسمّيات ابتدعوها، كانت خيانة لكل ما ترثروا به طوال عقود مضت. أن تكتب رواية عن زماننا، أي أن نكون شهوداً عليه، قضية أخلاقية أكثر منها قضية سياسية.

(روائي من سورية)

هل يصح للرواية إغفاله والتخلي عنه كلية للمؤرّخين؟

تقام عزام، كولاج على قماش، 240 × 140 سم

صدر قديماً

تاريخ الفكر العربي ما الذي كان يريده إسماعيل مظهر بكتابه؟

فهرس لا يوافق العنوان

تختص زاوية «صدر قديماً» بتقديم قراءات في كتب عربية مرّت عقود على إصدارها وما زالت تنبض براهنية تستدعي قراءتها واستعادة اصحابها

شوقي بن حسن

كثيراً ما تُستعمل عبارة ملء فراغ في المكتبة العربية في غير محلّها، فهي عبارة أقرب إلى دعاية تكثير من المؤلفات التي وردت فيها دون أن تجد مبرّراتها في مضامين هذه الأعمال. غير أن كتاب «تاريخ الفكر العربي» الذي صدر في 1928 للكاتب المصري إسماعيل مظهر (1891 - 1962) كان جديراً بمثل هذا الادعاء، فحين نُشر لم يكن يوجد عمل يقدّم قراءة شاملة في الفكر العربي منذ نشأته، وصولاً إلى أيامه.

ثمّ إننا حين ننطلق في قراءة الفصل الأوّل من الكتاب، وقد حمل عنوان «تاريخ الفكر العربي في نشوئه وتطوّره بالترجمة والنقل عن الحضارة اليونانية» قد نشعر - من خلال إلمام المؤلف بتشعّبات هذه المسالة التي قد جعلها منطلق مبحثه - باننا حيال مشروع رائد قد يعيد للثقافة العربية بعض الثقة في النفس إثر الاهتزازات العنيفة التي تعرّضت لها منذ الحملة النابوليونية، وطوال القرن التاسع إلى بدايات القرن العشرين.

إلا أن هذا الفصل يكاد يكون الوحيد الذي يمكن وضعه تحت مسمّى «تاريخ الفكر»، حيث إن تبويب الكتاب سيخضع لاحقاً لمنطق غير كرونولوجي، ويعتمد المؤلف الكتابة السيَرية في تناول تاريخ الفكر العربي. الغريب أن الشخصيات التي اختارها مظهر ليست ممّن تكرّس الاعتقاد بانهم «فحول» الفكر في الحضارة العربية الإسلامية، إذ يغيب الكندي والفارابي وابن سينا وابن خلدون، فيما يحضر جابر ابن حيان وأبو العلاء المعري ومهيار الديلمي في فصول مخصصة لهم.

هكذا، فإن مقارنة بين عنوان الكتاب وفهرسه ستقود القارئ إلى اعتبار «تاريخ الفكر العربي» اسماً على غير مسمّى، وقد كان أجدر بالكاتب المصري لو اعتمد عنواناً أكثر تواضعاً، والأهم أن يكون أكثر مطابقة لمحتوى عمله، وربما كان أجدى لو قصر كتابه على الفصل الأول فجعله دراسة مستقلّة في انتقال المعرفة الفلسفية من اليونان إلى العرب، فقد قدّم في هذا الإطار قراءة ناضجة تعبّر عن فهم لدقائق النصوص القديمة ومعرفة واسعة تُحسن الربط بين ما ينتج ضمن الفكر وما يؤثّر فيه من عوامل الدين والشعر واختلاف الأعراق والعادات، وبذلك كان يبيّن كيف تسرّبت أفكار كتب أفلاطون وأرسطو فتشرّبها العرب ووازنوا بينها وفحصوا ومحّصوا، وبفضل ذلك وجدوا لهم طريقاً جديداً في الفلسفة، ومن هذا المنظور يحسم كتاب مظهر الجدل مع القائلين - ومعظمهم من مستشرقي عصره - بأن الثقافة العربية مجرّد ناقل للفلسفة اليونانية القديمة إلى العصور الحديثة.

من حُسن الحظ أن الثغرة التي تركها مظهر سرعان ما انبرى كاتب مصري آخر لردمها؛ حين أصدر أحمد أمين في 1929 كتاب «فجر الإسلام»، مفتتحاً به موسوعة تؤدّي غرض التاريخ للفكر العربي، وإن اتت ضمن مقاربة مختلفة عن الكتابة التاريخية المضبوطة. أما تاريخ الفكر العربي بالمعنى الدقيق للكلمة، فلعله إلى أيامنا لم يُكتب بعد، ربما باستثناء محاولات بلغات أجنبية كما فعل محمد أركون في الفرنسية أو ميغيل كروث إرنانديث بالإسبانية.

تاريخ للفكر العربيّ يغيب عنه الفارابي وابن سينا وابن خلدون

مقرنصات من قصر عباسي في بغداد، صورة ملتقطة عام 1978 (Getty)

فعاليات

يتواصل معرض **سرنديبية** للفنان التشكيلي المصري **إبراهيم الحداد**، في غاليري «المشربية» في القاهرة حتى 22 تشرين الاول/ اكتوبر، ويضم مجموعة جديدة من الاعمال مشبعة بإحساس قوي بالهدوء والضعف في آن. شخصياته تستحضر الملامح الجسدية المصرية القديمة ومليئة بالعناصر الطبيعية، مثل الطيور والاسماك والكروم.

في «مركز البحوث المغاربية المعاصرة» في تونس العاصمة، تقام عند الخامسة والنصف من مساء بعد غد، الخميس، حلقة نقاش حول كتاب **الميديا وإعادة هيكلة الحياة السياسية في تونس ما بعد زين العابدين بن علي** للباحثين **إيريك كلاوس** و**اوليفييه كوش**، وسيكون الاول حاضراً من خلال محاضرة افتراضية يتناول فيها كيف جاءت فكرة الكتاب وكيف أُنجز.

يقيم متحف الفن الجديث (موما) في نيويورك، معرضاً يقام حالياً واقعياً وافتراضياً، بعنوان **فليكس فينون: من الاناركي إلى الطليعي**، ويتواصل حتى الثاني من كانون الثاني/ يناير المقبل. المعرض يستكشف تطوّر الحداثة من خلال اعمال الناقد فينون (1861 - 1944)، ويستعرض اعمال الفنانين الشباب الطليعيين الذين قدمهم.

تقيم **مدرسة لندن للاقتصاد** محاضرة افتراضية، عند السادسة من مساء بعد غد، الخميس، تلقيها كل من **سارة وايز** (الصورة)، مؤلفة كتاب «أكثر الشوارع سواداً والناس المتعبين»، وشارلز **بوث مؤلف** «خرائط الفقر». وتتناول المحاضرة الفقر والمجموعات المختلفة في الاحياء الفقيرة وتاريخها الاجتماعي وتحولاتها منذ القرن التاسع عشر.